من التصوف اليهودي المغربي :
«سفر بيرح شوشان» أو زهرة السوسن
ليعقوب بويفركان
(القرن XVII-XVIم)

عبد الرحيم حيمد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر - أكادير -

يحدد دارسو تاريخ الأفكار حدوث النقلة في التصوف داخل الديانات السماوية التوحيدية ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في فضاءات الغرب الإسلامي وأرباضه النصرانية ؛ طفرة نوعية أنضجها التفاعل الحضاري العام الذي أفرز صداما بين نمطين من التفكير : نمط عقلاني أسه البرهان[1]، ونمط "ثيوصوفي" أسه قياس المماثلة، أبرزه تعمق النزوع العرفاني. فقد شكل التصوف الإشراقي، ذي العمق الغنوصي، المرجعية الرئيسية لمتصوفة الفضاءات المذكورة. وتطور هذا الخطاب في القرون اللاحقة، ليصدر عنه رجال عاشوا أحداث عصورهم متسلحين بالمعرفة الإشراقية، ومساهمين بكل قوة في تطوير بنيات العرفان مناهج ومفاهيما وإشكالية. من هؤلاء يهود مغاربة وسم الفكر الصوفي أعمالهم، نعرف القليل عنهم وعن إسهامهم في تاريخ الفكر المغربي بوجه عام. ويندرج هذا العرض في إطار عمل يسعى لإخراج بعض من نصوص هؤلاء باعتبار أنها تنير جوانب خصبة من الإنتاج الثقافي المغربي الذي ظل مغمورا ومجهولا من

---

(1) أحمد شحلان : "ابن رشد والفكر العبري الوسيط : فعل الثقافة العربية الإسلامية في الفكر اليهودي". الطبعة الأولى. مراكش، 1999.
أحمد شحلان : "من الفكر الفلسفي اليهودي العربي أبو عمران موسى بن ميمون وكتابه دلالة الحائرين". مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس. العدد الخامس والسادس، 1979. ص ص. 2-13.

القارئ بالعربية، على الرغم من أهميته في فهم جزئيات وتفاصيل تاريخ الغرب الإسلامي بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة ؛ سواء ما تعلق بأنسجة المجتمع والاقتصاد والسياسة، أو بتاريخ الأفكار ورواج المعرفة في هذا الفضاء. فما نقدمه في هذه المداخلة هو جزء من ترجمة كاملة قيد الإعداد لـ "بيرح شوشان" أو زهرة السوسن لمؤلفه يعقوب بويفركان. اخترنا أن نستعين فيه بالعمل الفذ الذي دشنه الطيب الذكر العلامة حاييم الزعفراني في مؤلفه "**أخلاق وتصوف**"[2] ؛ إذ قدم فيه ترجمة لبعض الفصول من "**زهرة السوسن**"، وأرفق ترجمته بجزء من المتن المدروس، كما نفيد في الآن نفسه من مصنفات أخرى ألمعت إلى بويفركان ودرست التصوف اليهودي المغربي[3] ونعتمد في السياق ذاته الدراسة الموسعة التي نهض بها موشيه حلاميش في الموضوع : «ربّي يعقوب إيفركان ويِتْصِروتو»(ربّي يعقوب إيفركان وإنتاجه)[4].

"**بيرح شوشان**" مؤلف حرره يعقوب بويفركان في جنوب المغرب، في مطلع القرن السابع عشر. نص شارح لسفر "بيرقي أبوت". لنعرف بالمتن المشروح قبل أن ندلف إلى عمل بويفركان لنترجم نصوصا مختارة منه، ونربط المترجم بمحيطه المعرفي والمجتمعي.

سفر الآباء أو بيرقي آبوت : موقعه من الآداب التلمودية ومضامينه العقدية :

كتاب **بيرقي آبوت** من تصنيف شيخ **المشنا** من دون منازع **الربي يهودا هاناسي** ؛ وهو جماع المرويات الحكمية اللاحقة لزمن الأنبياء[5]. ويمثل جزءا على درجة كبيرة

(2) Haïm Zafrani : "Ethique et Mystique", Maisonneuve et La rose. 1991.

(3) "Kabbale, vie mystique et magie", p. 182.

(4) موشيه حلاميش : "ربّي يعقوب إيفركان ويِتْصِروتو" (ربّي يعقوب إيفركان وإنتاجه) ؛ في مجلة بيعاميم، العدد 48، القدس 1990؛ ص ص. 85-110.

(5) "**פרקי אבות**"، أو بيرقي آبوت، من أهم نشراته طبعة فيلنا 1883.
انظر الترجمة الكاملة لهذا النص، وكذا لبعض من الشروح حوله في ماأنجزه Éric Smilévitch بهذا الصدد :

"Commentaires du Traité des Pères", Traduit de l'hébreu et annoté par Éric Smilévitch. Edition Verdier.

من الأهمية في متن **المشنا**، إذ يقع في المبحث التاسع من مباحث الباب الرابع في المتن التلمودي. ويتضمن شرائع العوض في الشريعة اليهودية ؛ بيد أنه مبحث لا يتضمن مادة شرعية بالمعنى الدقيق لاصطلاح الـ"هلخا" أو الشريعة. فالمادة فيه أمثال وأقوال حكمية ربَية، حُفظت متونها وأسانيدها، وأضحت معروفة، لاحقا، بالاسم "بيرقي أبوت". فالبنية العميقة في هذا السفر مؤسسة على موضوع الأخلاق من منظور التصور الربَي. ذلك أن مجموع الأمثال الحكمية الواردة فيه تعكس استمرار الرواية الربَية الحاملة للتقليد أو للسنن الأخلاقية في حلقاتها الأقدم(6)، من موسى حتى زمن **التنايم**(7)، أي أساتيذ المشنا الذين يفترض أنهم دونوا هذه المتون حوالي القرن الثالث الميلادي. يضم متن **بيرقي أبوت** خمسة فصول، تتضمن أربعة منها المأثور الحكمي المنسوب إلى ثلاثة وستين حكيما، من أشهر حكماء إسرائيل، وهم الحكماء الذين عاشوا من زمن **شمعون العادل**، الحلقة الرئيسية في السند التنائي (حوالي 200 ق.م.)، إلى غاية زمن الحكماء الذين رووا عن **يهودا هناسي** (280م). ومعنى ذلك أنه متن يغطي حوالي أربعمائة وخمسين عاما. ولذلك نعاين فيه تراتبية

---

(6) يتعلق الأمر بسلسلة الأسانيد الحاملة للمتون للسنن النبوية في اليهودية الربية، إذ التصور الديني قائم على قناعة راسخة، تفيد تلقي موسى لشريعتين على جبل الطور : شريعة مكتوبة تمثلها التوراة، وشريعة شفوية هي المشنا وجزء من الجمارا. نُهي في البدء عن فعل تدوينها، وانتهى الأحبار الربّيون إلى خرق النهي الشرعي عن التدوين بسبب سياقات سياسية وثقافية عاشتها يهودية القرون الأولى لميلاد النصرانية (حرب الرومان لليهود، خطر الثقافة اليونانية في حلتها الهلنستية، تراجع العبرية أمام المد الآرامي...). وتقدم سلسلة الأسانيد الحاملة للمتون التي دونت في التلمود وفق الخطاطة التالية : "حين تلقى موسى الشريعة على جبل الطور نقلها إلى يشوع الذي نقلها إلى القدماء، وهؤلاء نقلوها بدورهم إلى الأنبياء، وعن الأنبياء يروي الـ "سَنْهدْرين" هذه الشريعة".
انظر حيمد عبدالرحيم : "التصوف اليهودي (القبّالَ) والتصوف الإسلامي : دراسة مقارنة لنظريات الوجود والمعرفة في فكر موسى الليوني ومحي الدين بن عربي" ؛ جامعة ابن زهر، كلية الآداب – أكادير، 2001، ص ص.601–921 (أطروحة مرقونة)، ص ص. 35–100.

(7) **תנאים**،تنايم : لفظ عبري مشتق من الجذر الآرامي "تني" الدال على الفعل عَلِمَ، وروى. والتنايم، هم العلماء بالتوراة والرواة للشريعة الشفوية، وهم ربيو القرن الأول والثاني الميلاديين، في زمن صياغة المشنا. وهم الذين مثلوا الطوائف اليهودية أمام السلطة الرومانية. وقد عمل أعلام "التنايم" بين سنتي 70م –135 م على جمع وتدوين قواعد الأخلاق وشرائع الطقوس الدينية اليهودية. وهو المجهود الذي ساعد زيهودا هانَسي "في تدوين المشنا. لم يتم إثبات بعض مما دوّنه التنايم في المشنا. وقد ضمه متن آخر هو المتن المعروف بالـ "توسيفيتا" أو الإضافات. ومن أهم أعلام الـ "تنايم" : "يوحنا بن زكاي" (معاصر لانتفاضة باركوخبا سنة 135م)، والربي "يوسف بن عقيبا"، والربي "شمعون باريوحاي" (ينسب إليه سفر البهاء)، والربي "مايير"، والربي "هانسي".

كرونولوجية، تمتد من رجال **الكنيس الأعظم** إلى الربي **شمعون بن كمالايل** ؛ ثم أسماء الحكماء من **هيلل إلى الربي طرفون** ؛ بالإضافة إلى شيوخ القرنين الأولين للميلاد، وكذا أمثالا مجهولة تغطي الفصل الخامس منه. ويختتم هذا السفر بأمثال وعظية تنسب لحكماء لسانهم آرامي، منهم **ابن باك باك وابن هيهي**. وقد ألحق بهذه الفصول فصل سادس غريب عن **المشنا**، أضيف لاحقا إلى **بيرقي أبوت**. ودرج على تلاوة مادته في **السبوت** الفاصلة بين **الفصح وشبوعوت**. وهو فصل يعرف باسم **"قينيان تورا"**، أوحيازة التوراة ؛ فصل مصوغ بأسلوب **المدراش**[8] الوعظي. وبالجملة، يمكن القول إن **بيرقي** آبوت كتاب أساس في علم الأخلاق اليهودية، أضحى عنصرا مكونا في شعائر **السبوت** التي تفصل بين **الفصح وشبوعوت**. وتحصيل نصوصه إلزامي في برامج التعليم الأولي (**الحيدريم**) والتعليم في الأكاديميات التلمودية (**الياشيفات**).

لقد مثل هذا الكتاب، على مر العصور، موضوع اشتغال كثيف من قبل أعلام اليهودية[9]. شرحه الربي **موسى بن ميمون**[10]، وشرحه من كبار الفقهاء **راشي، ويونا ماهارال**. وتناوله بالشرح الموسع من يهود الأندلس المتأخرين، بالإضافة إلى **ابن ميمون، أبو درهام هاشاليم** (القرن الخامس عشر). وقد طبع هذا الشرح على المطبعة الحجرية في فاس عام 1517 في المدة القصيرة التي تواجدت فيها المطبعة بالعدوة الفاسية. كما تناول هذا السفر بالشرح والتعليق مغاربة، نذكر منهم على وجه الخصوص **أبراهام أزولاي** الذي حبر شرحه عام 1641 وعنونه بـ **"أهبات هتعنوكيم"** أو حب النعم شرح يخضع للمناهج الكلاسيكية للشرح الربي القائم على العودة المتواصلة للعهد العتيق وشروحه وللتلمود ومجمل الهيرمينوطيقا المرتبطة به.

ففي هذا السياق، سياق الشروح لسفر بيرقي أبوت، يندرج شرح الربي يعقوب بويفركان، وهو الشرح الذي شاء له صاحبه عنوانا متأصلا في الرمزية الصوفية "بيرح شوشان" أو زهرة السوسن. مصنف ينتمي إلى فضاء الجنوب المغربي[11]،

---

(8) من الجذر "دَرش" الدال في العبرية على فعل الدرس والتفسير، ومنه "دَرْشان" أي شارح ومفسر. والمراد بالـ "مِدْراشيم" الشروح والتفاسير التي كتبها أحبار اليهود بعد جمع التلمود.

(9) Jean Borel : "Commentaires du Traité des Pères", Revue de théologie et de philosophie, n° 123, 1991.

(10) **" משנה עם פרוש הרמב"ם"**، القدس 1963، الجزء الرابع، ص ص. 274-304.

(11) د. دانيال شروتر : **"اكتشاف اليهود الأمازيغ"**، ترجمة د.عبد الرحيم حيمد، مجلة قراءات، العدد 4، ربيع 2006، ص ص. 16-35.

صاغه صاحبه بين سنتي 1598 و1619م. في فترة عصيبة من تاريخ المغرب وتاريخ الطوائف اليهودية بهذا الفضاء. وهو يمثل جزءا من الإنتاج الثقافي اليهودي المغربي الذي لم ير جله النور، على الرغم من أهميته الكبرى في تاريخ الأفكار وتاريخ الثقافة الوطنية بوجه عام. لقد كان حاييم الزعفراني من السباقين إلى الإلماع إلى هذا الإنتاج الضخم القابع في خزانات العالم الكبرى. ولذلك خصص لإنتاج طوائف الجنوب المغربي حيزا هاما من مؤلفه "**قبال، حياة صوفية وسحر**". وخصص سنوات عدة لتحقيق أجزاء مطولة من مخطوط "**زهرة السوسن**" الذي بين أيدينا، ونشر منه بعض الفصول في مؤلفه "**أخلاق وتصوف**". وفي هذ المصنف الأخير تنويه جليل بالموروث الثقافي المتنوع الذي خلفته طوائف الجنوب المغربي. نقرأ في خطبة هذا الكتاب مايلي :

هذا مصنف مهدىً، أولا، إلى الطوائف اليهودية بالجنوب المغربي : طوائف درعة، وسوس، وتخوم الصحراء في أقا، وتامكروت وإفران الأطلس الصغير، وسجلماسة وتارودانت. إنه مهدىً إلى الإنتاج الفكري المتنوع، الصوفي والقبّالي منه على وجه التحديد، الذي هيمن لقرون عدة في أوساط هذه الطوائف النائية. مصنف يذكر بالإبداع الأدبي، وخاصة الكتابات القبّالية المدهشة بأصالتها وخصبها التي امتزج فيها العلم بالعرفان والإيمان العميق(12).

في سيرة يعقوب بويفركان

لانعرف سوى النزر اليسير عن حياة المؤلف لزهرة السوسن. فالرجل علم من أعلام الفكر اليهودي ؛ عاش فترة حرجة من تاريخ جنوب المغرب، طبعتها الفتن والتنازع على السلطان بين أبناء **احمد المنصور الذهبي**، وأججت أوار حربها الزعامات المحلية المتمثلة في نفوذ الزوايا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. فقد حرر **بويفركان** مصنفاته في ظروف قاسية. وتتضمن أعماله القيمة، بالإضافة إلى متنها المعرفي الصوفي، معلومات قيمة عن تاريخ المنطقة؛ وتعكس، في نفس الآن، ومن خلال مضامينها تاريخ الأفكار، وحركية النظريات والمذاهب اليهودية المتداولة في فضاءات الجنوب المغربي.

Haïm Zafrani : «Ethique et Mystique», Maisonneuve et La rose. 1991. (12)

يعود أصل النسبة في الاسم إلى أمازيغية سوس، فبويفركان من إفركان، ج. إفريك (الشوك أو الزرب). ويلقب الرجل في الأدبيات اليهودية للجنوب المغربي بـ "يوصير" أي الصانع، أو الطيّان. كما درج على ضم اسمه في بعض المصادر إلى لقب הצורף"هَصّورِف" أي الصراف أو الصائغ. ويدعوه يهود الجنوب المغربي باسم "ربّي أقّان"، وهو تصغير لاسم يعقوب. كما يلقب في مصادر أخرى بـ "ماكّيد هاعَتيدوت"، أي المنبئ عن مقبل الأيام. بلغنا من مؤلفاته مصنفان هما :

1- "مِنْحاه حَدَشاه"، أي "تقدمة جديدة" : شرح صوفي للأخماس (التوراة)، تعكس مادته ومنهج التحليل ثقافة قبالية واسعة وعميقة. وتخبر عن إحاطة المؤلف بمستجدات الفكر اليهودي في عصره. وهو مصنف ما يزال بعد مخطوطا. تقبع نسخة منه في متحف ليفربول بخط بويفركان نفسه، مؤرخة بالعام 1619م(13).

2- "بيرَح شوشان"، أو "زهرة السوسن"(14)، مصنف يصدر صاحبه عن فكر صوفي مغرق في مذهب القبّالا الإشراقية(15). ويقدم تحليلا صوفيا للنص الديني المشنائي وفق قواعد القبالا. وهو يعكس تيارات ومذاهب الفكر اليهودي في زمنه. و"زهرة السوسن" قراءة باطنية لـ "بيرقي أفوت" أو "كتاب الآباء"، الذي يشكل أحد أبواب المشنا الخاصة بشرائع العَوض ورد المظالم في التشريع اليهودي الربّي الذي تحدثنا عنه أعلاه. وبذلك، فهو تأويل أخلاقي ؟ حِكَمي للأوامر الشرعية وفق مبادئ القبّالا.

---

(13) «Kabbale, vie mystique et magie», p. 182.

(14) «Ethique et Mystique. Judaïsme en terre d'Islam», p. 63.

– موشيه حلاميش : "ربّي يعقوب إيفركان ويِتْصِروتو" (ربّي يعقوب إيفركان وإنتاجه) ؛ في مجلة بيعاميم، العدد 48، القدس 1990، ص ص. 85-110.

(15) يرادف اللفظ العبري "قبّالا" : التلقي والتقليد. وهو مصدر مشتق من الفعل السامي العبري "قِبِّلس، أي تلقّى وتقبّل. ويحيل في دلالته الأولى على معنى مجموع التعاليم الواردة في العهد القديم وعلى متون الرواية الشفوية، قبل أن يغدو دالا في اليهودية الربيّة على "علم الأسانيد". وقد اكتسب هذا الاصطلاح حمولاته الدالة على نظام مذهبي إشراقي خاص في عصور متأخرة، حين شيد متصوفة يهودية الغرب الإسلامي وتخومه المسيحية، خلال القرن الثالث عشر الميلادي، نظريات في الوجود والمعرفة والقيم، محورها الرئيس مذهب "السّفيروت" أو الأسماء الإلهية وتجلياتها في العوالم المختلفة.

- Gershom Scholem : "Les Origines de La Kabbale", (Traduit de l'allemand par Jean Loewenson), Edition Aubier-Montaigne. Paris. 1966. (Avertissement rédigé par George Vajda). pp. 5-6.

ينضح بتوظيف متواصل وخلاق لحكمة أسرار الحروف بمعظم تقنياتها المعروفة في هذا العصر. كما يتشكل أس تفسير النص الشرعي فيه على نظرية الأسماء الإلهية، أو مذهب فيض السيفيروت المهيمن آنئذ على الفكر الصوفي اليهودي في مشارق الأرض ومغاربها. توجد نسختان كاملتان لهذا المؤلف : المخطوط الأول منها في خزانة جامعة كامبردج، في إنجلترا ؛ أما المخطوط الثاني فيوجد في **نيويورك** في مؤسسة Jewish Theolojical Seminary. كما توجد كذلك نسخة بخط **بويفركان** نفسه، وبإمضائه في مؤسسة "**بن صبي**" في القدس، بالجامعة العبرية ؛ بيد أنه مخطوط ناقص سقطت منه صفحات عدة تضمنت أبوابا بكاملها[16].

الخطاب المقدماتي في «بيرح شوشان»[17]

سياق التحبير : استهلال التواضع

يستعير المؤلف عبارات تقديم ذات رجع ربي فيها بسط لأعذار شتى، ولمع من سيرة حياة تحول فيها يسر العيش ورغده إلى عسر وضنك، عناوينُه تبدل أحوال السلطان الحامي، ونوء بكلكل القحط والطاعون. نقرأ في الاستهلال :

"وأنا المستكين، أرجو ممن فتح الله عليهم بالعلم، أن إذا اطلعوا على هذا السفر أن يرفقوا بي، ويلتمسوا العذر لعثراتي في حال وقوعهم على ما يجانب الصواب فيه. والله أسأل مجازاتهم. وهم بذلك سيعملون بما قال **التناء**[18] في **المشنا** : "أَنِ ارفق بمن نوديتَ لتحمله"[19]. والحق أقول : إني امروٌ غِرّ، غير محنك ولا مجرب، لما أبلغ الرابعة والثلاثين بعد؛ فقير إلى العلم والعقل، محتاج وقليل ذات اليد. فأنا رجل من أهل الصناعة ؛ أحصل بالكاد على رغيف العيش. وأشقى باليدين وعرق الجبين.

---

(16) موشيه حلاميش : م. س. ص. 90.

(17) انظر مزيدا من نصوص "زهرة السوسن" التي ترجمناها إلى العربية في مجلة قراءات، العدد الأول، ربيع 2005.

(18) أنظر هامش 7.

(19) بيرقي أفوت : 1 – 6.

وأهل الحرف يدركون أكثر من غيرهم أن فراغ الجيب أشد على المرء، وأمر من كل مرير".

ثم انبرى المصنف، بعد ذلك، للحديث عن ظروف الطائفة اليهودية في عصره، والأسباب التي اضطرتها للنزوح عن **تارودانت**، قبل أن يتحدث عن سياق تأليف السفر بفضاءات الجنوب. يقول :

"... وتربصت بطائفتنا الدوائر، وتوالت المكاره تلو المكاره: أوبئةً ومجاعات، وطردا ومطاردة، وتهجيرا وترحيلا. فلقد أكرهنا الوباء على مغادرة **تارودانت المحروسة** سنة خمسة آلاف وخمسمائة وثمانية ثلاثين لبدء الخليقة[20]، لنلقي عصا التسيار ببلدة أقا حيث قدر لنا أن نقيم بها إحدى عشر سنة متوالية. ثم حلَّت بعدها سنون قحط عجاف، بلغت السَّنام سنة خمسة آلاف وثلاثمائة وثمانية وستين[21] ؛ إذ في ظرف ستة أشهر عمّ الغلاء ؛ وارتفعت الأثمان في البلدة التي كنا بها حتى بلغت زنة القمح الواحدة ست أوقيات كبرى. ثم ما لبث الرب أن نظر بعين الرفق لحالنا واستجاب لصلواتنا، فأشفق على الأرض. وأرسل سماء الغوث علينا مدرارا. بيد أنه لم يمض زمن طويل حتى انقض البغاة الأشرار على البلدة التي تجيرنا، يبتغون التعدي وحرب السكان، وسلبهم الأموال والأمان. حاصرونا، وحل بنا الرعب. واختلط الحابل بالنابل طيلة أيام عشرة، قبل أن نفلح في فك الحصار حين افتدينا أنفسنا من أيديهم بمبلغ عظيم. وعلى الرغم من ذلك، لم نتنفس الصعداء حتى عاد للبلدة المارقون أنفسهم مرة أخرى سنة خمسة آلاف وثلاثمائة وتسعة وستين[22]. أغاروا علينا لإرعابنا وحاصرونا عشرة أيام متتالية، نهارا وليلا. و لم ينفضوا عن بلدة **أقا** إلا بعد أن وقع بأيديهم مكان تحصننا حيث كنا نبكي ونصوم ونصلي هلعا. انفضوا بعد أن أحرقوا المكان، وسلبوا الأموال، وتركونا فقراء معدمين. حينذاك شرعت في تحبير هذا الكتاب. كان ذلك في بداية سنة خمسة آلاف وثلاثمائة

---

(20) الموافق لسنة ألف وخمسمائة وثمانية وتسعين للميلاد.

(21) الموافق لسنة ألف وستمائة وثمانية للميلاد.

(22) الموافق لسنة ألف وستمائة وتسعة للميلاد.

وسبعين[23]. وفي هذه السنة غادرنا **أقا**، متوجهين إلى **تَمَنارت**[24]. وعلى الرغم من أننا لم نجد بهذه البلدة معينا لنجدتنا، قررنا الإقامة بها. وبسبب من ذنوبي الكثيرة قذف بي في السجن مرات ثلاث. و لم يطلق سراحي إلا بعد أن افتديت نفسي. ولتوالي الأيام العصيبة علي هناك، صعدت الجبل بمعية أسرتي لنقطن في بلاد البرابر السذج البسطاء. أقمت هناك حوالي السنة فقيرا، معدما وسائل الرزق. ثم غادرت هؤلاء في نهاية السنة ميمما شطر **أوفران**[25] "ليحل عليها سلام الرب" حيث أقمت هناك ثلاثة أشهر. وهو ما جعل من المدة التي تلت هجرتي من **أقا** حوالي ثلاث سنوات من التيه. وقد بقيت في حيرة من أمري ؛ وظل الخوف من أن يصيب أسرتي مكروه ملازما لي. ولذلك غادرت **أوفران** عائدا إلى **أقا** بمعية أهلي وأحبائي. وأخيرا، التحق بي هناك أفراد الطائفة اليهودية الرودانية، الذين كانوا قد استقروا بـ **تمنارت**. وجدنا بعض الراحة والدعة بـ**أقا**، غير أن ذلك لم يلبث أن تغير لتحل النزاعات، وليصيبنا المكروه بسبب خطايانا، وتتوالى علينا المحن تباعا حتى سنة خمسة آلاف وثلاثمائة وخمسة وسبعين لبدء الخليقة[26].

والله الذي يتعالى في السماوات، الذي وجبت له التسابيح والصلوات، أيقظ في قلبي جذوة إتمام هذا الكتاب الذي حَبَّرته طمعا في ثواب الآخرة. ونهضت به على الرغم من قلة ذات اليد، وعلى الرغم من كل الأحزان والكرب العظيم..."[27].

---

(23) الموافق لسنة ألف وستمائة وعشرة للميلاد.

(24) لا ذكر البتة في الشذرات التي ترجمها الأستاذ حاييم الزعفراني من هذه المقدمة لتمنارت الأطلس الصغير، إذ تحل محلها "تامكروت". وعلى العكس، فالأمر يتعلق بتمنارت التي ورد ذكرها الصريح في مخطوط النص الذي اطلعنا عليه، وكذا التحقيق الذي أثبته الأستاذ الزعفراني في نهاية مؤلفه حول الأخلاق والتصوف.

(25) فضلنا ذكر الاسم "أوفران" بالصيغة التي ورد بها في المخطوط العبري، وعدم تحويرها إلى يفرن أو إفران.

(26) لسنة ألف وستمائة وخمسة عشر للميلاد.

(27) "بيرَح شوشان"، الورقة 15 (ألف وباء) ؛ انظر النص العبري المحقق في :

Haïm Zafrani : «*Ethique et Mystique*», pp. 192-193.

وانظر الترجمة الفرنسية لشذرات من الكتاب في الصفحة : 93-94.

يلزم تفكيك بنى هذه المقدمة المترجِمة لظروف تأليف "**زهرة السوسن**" من خلال تفاصيل وجزئيات تاريخ المغرب، ولتاريخ **تارودانت** وفضاءات الجنوب.

يتضمن النص نقط ارتكاز كبرى تكشف عنها التواريخ التي أوردها **بويفركان**. ويؤطر سنوات الارتكاز المبسوطة تحقيق جزئي يَعتدّ بالتقويم اليهودي المبني على التأريخ ببداية الخليقة. فالنص يغطي فترة زمنية تمتد من العام 5358 إلى سنة 5375 لبدء الخليقة ؛ أي من سنة 1598م إلى 1615م. وخلالها ورد الحديث عن الوباء بـ**تارودانت**، ثم حلول جائحة القحط، تلتها وقائع النهب والسلب الذي تعرضت له الطوائف اليهودية الرودانية في **أقا**، ومغادرتها إلى **تمنارت** ثم أوفران الأطلس الصغير قبل العودة إلى أقا حيث ستنشب فتن أخرى استمرت إلى غاية سنة 1615م سنة صياغة **بويفركان** لمصنفه بوجه عام ولهذه الصفحات البيوغرافية بوجه خاص.

ووصل نقط الارتكاز المتصلة بالزمان بتاريخ المغرب في هذه الفترة، يجعلنا نحيط بما سكت عنه **بويفركان**، لندرك أن خلف ما يسمى بالتاريخ البكائي الذي هيمن على مؤرخي اليهودية في العصر الوسيط إفادات جلّى بالإمكان استثمارها. لنشر إلى ظاهرة مطردة تتمثل في معاناة اليهود محن وويلات الاضطرابات السياسية في المغرب[28]. وهي محن ظلت ترافق عادة فترات الجفاف والأوبئة، أو تفكك السلطة المركزية. ووضعية الطائفة الرودانية هنا تدخل في سياق هذه القاعدة المطردة.

فحديث المؤلف عن الوباء في المنطقة ورد في مصادر أخرى، أكدت أن **تارودانت** كانت أول حاضرة مغربية يضربها الطاعون في هذه الفترة. ومنها انتقل إلى باقي أرض المغرب. ليقضي بضع سنين، بعد ذلك، على **أحمد المنصور الذهبي** نفسه سنة 1603م الموافق 1012 هـ[29].

---

(28) عبد العزيز شهبر : "كتاب التواريخ، تأليف أحبار من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية" ؛ منشورات جمعية تطاون أسمير تطوان، 2002.

(29) انظر على وجه الخصوص ما أورده عبد الرحمان التمنارتي عن الوباء، وعن القحط، وكذا عن الصراعات المذهبية التي عصفت بتارودانت في هذا العصر بالذات في "الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة". تحقيق اليزيد الراضي، 1999. وانظر أبيات التمنارتي الشعرية التي نظمها بهذا الصدد. ص ص. 301-309.
وانظر أيضا أخبار هذا الوباء والقحط في : "كتاب التواريخ، تأليف أحبار من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية"، ص ص. 17-18.

- لماذا لم يعد **بويفركان** وأفراد الطائفة إلى **تارودانت** بعد انحسار الوباء عنها ؟

نعثر على الجواب في مصدر يهودي آخر عاش صاحبه الأحداث نفسها. إنه (היכלהקודש)، "هيخال هَقودِش" (قصر القداسة) لـ**موشيه بن ميمون الباز**[30]. وفيه أن بعض الناس، من أفراد الطائفة، أمِنوا إلى انحسار الوباء، فعادوا أدراجهم إلى ديارهم، غير أن الطاعون عاد ليضرب من جديد ببأس أكبر، وشراسة أشد؛ ففر من فر إلى الجبال المجاورة، وهلك الباقون. يصف الباز السياقات ذاتها: "شرعت في تأليف هذا المصنف عام خمسة آلاف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين[31] [لبدء الخليقة]، في مدينة **تارودانت** المحروسة، ليحمها العالي أبد الدهر؛ غير أنني اضطررت إلى التوقف عن الكتابة... بسبب الظروف العصيبة التي كنا نحياها : فتن، وغلاء، وقلة مال. ففي سنة خمسة آلاف وثلاثمائة وثمانية وخمسين[32] حَلَّ عقاب الله الأليم بهذا العالم ؛ فضرب الوباء بقوة **تارودانت** في أول يوم من أيام الفصح. وهام أفراد الطائفة على وجوههم هربا، صعدوا الجبال والتلال واحتموا بالقرى المجاورة ؛ بيد أنهم لم يجدوا بها راحة مبتغاة... فقصدت أقا رفقة أصحاب لي وأسر عدة...وقد دام انتشار الوباء إلى هلال تموز ؛ ثم ارتفع. فعاد بعض السكان إلى **تارودانت** من الجبال؛ غير أني توجست خيفة. فلبثنا في أقا. وفي السنة الموالية، عاد الوباء شهر نيسان، ليضرب المدينة ببأس شديد، فاق ما مضى. وكل من دخل المدينة هلك وقضى ؛ بل إن الوباء تعقب بعض الهاربين إلى الجبال. وفي شهر آب عاد الرب عن غضبه. وانحسر الوباء. وتراجعت أعداد الهالكين. وقد كنا في دار الهجرة أقا معضدين بالعون الإلهي، وبمدد الرب لأبطاله القائمين بأوامره المنصورين على الجبابرة[33]"[34].

---

(30) موشيه بن ميموم الباز رئيس الطائفة اليهودية في تارودانت، وشيخ يعقوب بويفركان. عاصر الأحداث نفسها التي عاشها محبر "زهرة السوسن". طبع مؤلفه "هيخال هَقودِش" (قصر القداسة) لأول مرة في أمستردام عام 1635م. وخصص له حاييم الزعفراني دراسة مستفيضة في :

"*Kabbale, vie mystique et magie*". pp. 249-264.

(31) الموافق لعام 1575 للميلاد.

(32) الموافق لعام 1598 للميلاد.

(33) في العبارة الأخيرة إحالة ضمنية على سفر القضاة، الإصحاح الخامس، الفاسوق الثالث والعشرون.

(34) "هيخال هقودش" : الورقة 3، ألف.

أضف إلى ما سلف أن عدم العودة إلى **تارودانت**، والنأي بعيدا عنها نحو مناطق خالها المؤلف أكثر أمنا يرجع كذلك إلى السلطة السياسية التي حكمت الحاضرة الرودانية في هذه المدة، خاصة بعد تنازع أبناء المنصور أمر الملك. فقد سيطر **أبو زكريا عبد المنعم الحاحي** على فضاء **تارودانت**، وطرد اليهود منها. لا يجب أن ننسى أن هذا الطرد مرتبط بوضعية اليهود في عهد الدولة السعدية، وعلى وجه الخصوص في **تارودانت**. فقد شكل هؤلاء أعوان سلطة، وجباة، ووسطاء، وحراسا لمعامل السكر. أضف إلى ذلك اختيارات إيديولوجية مرتبطة بحركة **أبي زكريا الحاحي**. فهو الذي اشترط من أجل مساعدة **أبي زيدان** طرد اليهود وتهجيرهم من المناطق التي تخضع له، وهو الأمر الذي لم يتقيد به **زيدان** البتة[35].

لا يفصح بويفركان عن سبب مغادرته **لأقا**، ويتحدث عن حصار لا يذكر من قام به، ويؤكد حصول نهب وسلب و دفع فدية، وعودة حصار. حصل ذلك سنة 5369 الموافق لِـ 1609 م. وهي السنة التي تقع ضمن فترة قحط، لعلها كانت سببا غير مباشر للهجوم على **أقا من طرف القبائل العربية المعقلية** التي تشير المصادر إلى إغاراتها المتكررة في هذه الفترة على حواضر **السوس** وباديته[36]. ويمكن الربط بين الهجرة والتوغل نحو مناطق أبعد تمثلت هنا في **تمنارت** بازدياد نفوذ **أبي زكريا الحاحي**[37] في المنطقة واطراد نفوذه، بعد أن حول الزاوية إلى مشاغل السياسة والسلطان في خضم ظهور زعامات سياسية بمناطق أخرى من المغرب.

ولعل رحيل **بويفركان** عن **أقا**، وعدم عودة الطوائف اليهودية **لتارودانت** يجد تفسيره أيضا في سيطرة **الحاحي** نهائيا على حاضرة **سوس** سنة 1612م. **فالحاحي** كما

(35) حنداين محمد : "مساهمة في دراسة المجتمع الحضري المغربي : تارودانت ومحيطها التاريخي خلال القرنين 17-18 (1603-1790)". ص.8. (أطروحة مخطوطة).

(36) انظر إشارات عبد الرحمان التمنارتي إلى إغارات هؤلاء المتكررة على تارودانت في رسالته القيمة لأبي الحسن الجزولي (بو دميعة) ؛ " الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة"، ص ص. 533-541.

(37) جاء في نزهة الحادي عن الحركة الحاحية، وعن زعيمها : "هو يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الداودي المناني الحاحي. وكان جده رحمه الله أحيا السنّة بسوس. وقال فيه سيدي أحمد موسى السملالي رحمه الله، ما ولدت النساء قبله ولا بعده مثله... أخذ عن التباع.. ولما مات جلس ولده سيدي عبد الله الحاحي في مكان أبيه.. واهتم بدين أصحابه وتعليمه.. ولما توفي.. دفن بزداغة من جبل درن حيث كانت زاويته". الأفراني محمد الصغير. "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" ؛ مكتبة الطالب، الرباط، ص. 20.

يقول **المختار السوسي** : **"أزال المكوس، وحرم على اليهود الإقامة فيها"**. وتنبئ مصادر عدة أن **أبا زكريا الحاحي** قد اشرط من أجل مساعدة **زيدان** ونصرته على **أبي محلي** شرط إزالة المكوس وإخراج اليهود من خدمته[38]. فالمولى **زيدان** كان يشغل في ديوانه مغاربة يهودا كثرا، في مقدمتهم سفيره **صامويل بلاش**، **وأبراهام ويس** المكلف بالخزينة، **وجرمان** الذي كان معينا على **تارودانت**، بالإضافة إلى أرستقراطية يهودية ارتبطت **بزيدان** ونفذت في المخزن.

يمكننا أن نسلط الضوء أيضا على استقرار **بويفركان** وأسرته في **تمنارت**، ثم اختياره الهجرة منها خشية على أسرته وعلى طائفته. والحق أن **تمنارت**، وربوع **الأطلس الصغير** : **تنغير**، **وتامكروت**... ظلت الملجأ الأمين ليهود الجنوب المغربي قرونا عدة ؛ بيد أنها ستعاني من ويلات الزعامات السياسية المرتبطة بالزوايا في هذا العصر. ويمكن القول إن **بويفركان** فر إلى **تمنارت** طلبا للأمان حيث كان نفوذ **زيدان** ما يزال قائما. بيد أن تطور الظروف المرتبطة بثورة **أبي محلي** الذي وحد القبائل، وادعى المهدوية بوادي **الساورة**، ودعا إلى الأمر بالمعروف، واستيلاءه على **سجلماسة**، وطرده الخليفة **زيدان** منها، وكذا تقدمه نحو **درعة** سيضطر **بويفركان** إلى البحث عن ملجأ آخر، ولم يكن ذلك سوى الصعود إلى الجبل، ثم التوجه نحو **أوفران**. وقد أصاب ظنه، فلم يلبث **أبو محلي** -كما هو معروف- أن سيطر على **درعة**، وهزم جيش **زيدان**. محكما سيطرته على الطرق التجارية مع **السودان** مما منحه إمكانيات مادية دعمت موقعه السياسي والعسكري لاحقا.

هل كانت عودة الطائفة الرودانية، بعد ذلك إلى **أقا**، مرتبطة بارتحال **الحاحي** إلى **مراكش** عام 1612م وعزمه على الاستقرار هناك ؟ إن المكاره التي يتحدث عنها **بويفركان**، ويربطها بسنة 1614 و1615م متصلة بعودة **الحاحي** إلى المنطقة، ومناصبته العداء **لزيدان** الذي كان قد أخلف وعوده معه[39]. وهي ظروف جعلت الطائفة اليهودية تغادر **تارودانت** إلى فضاءات أخرى أكثر أمنا...

---

(38) محمد المختار السوسي : "إليغ قديما وحديثا"، المطبعة الملكية، 1966، ص. 63.

– "المعسول"، مطبعة النجاح،البيضاء، 1962. ج. 19. ص. 84.

(39) انظر تفاصيل اشتداد التنازع بين الزعامات المحلية حول سوس وحواضره في هذه الفترة، وما تلاها :

– نور الدين صادوق : "تارودانت فيما بين (1068-1073هـ/1658-1662م) من خلال مقيدات محمد بن عبد الرحمان التلمساني (ابن الوقاد)"، 1998.

استهل المؤلف شرحه بعرض موسع لعناصر التصور القبالي حول الخلق، باعتباره فعلا وجوديا يرتبط فيه السماوي بالأرضي، وتنتفي فيه الحدود الفاصلة بين الأنطولوجيا والمعرفة والأخلاق. ففعل الإبراء دفق متواصل لعوالم الألوهية، يجلّي أسماءها التي تصدر عنها عوالم ما تحت فلك القمر. ومعنى ذلك أننا أمام نظرية الفيض في صيغتها العرفانية القبالية التي تنتهي إلى وحدة وجود شبه معلنة. نقرأ في الكتاب :

"يلزمني في البدء، وقبل الشروع في شرح **بيرقي أبوت** تصدير عملي ببسط اصطلاحات عدة، رواها شيوخ القبال. فأصخ بسمعك لأقوال الحكماء، وللمعرفة التي تنبس بها شفاههم. نتلو في بيرقي أليعازار : "قبل أن يخلق العالم لم يكن سوى هو واسمه الأعظم"[40]. وفي ذلك ما يدل على أنه قبل إيجاد الأسماء الإلهية الحاملة لاسم عولام "العالم" لم يكن سوى هو الواحد الجلي روح الأرواح ... منه فاضت السِّفيروت.. أنوارٌ تسعة، تجلت منه كالسنا. فالقديم هو النور الأعظم سر الأسرار، لا يدرَك إلا من خلال الأنوار التي تصدر عنه...". يشرع بويفركان انطلاقا من هذه الأرضية المتشبعة بالمذهب القبالي في وصف فعل الخلق، منكبا على وصف تفاصيل العوالم النورانية بأسمائها وفعلها في أنطولوجيا الفيض، ليخلص إلى خلق الإنسان بمركبيه "يوتصير هاطوب" أو النزوع الخير، و"يوتصير هارع" أو النزع الشرير. وليجعل من خلق التوراة مدخلا لشرح "بيرقي أبوت". فهي فيض نوراني يلزم سبر بواطنها. يقول بار يوحاي : "اللعنة لمن يعتقد أن التوراة أوحيت لتحكي قصصا بسيطة، أو لتلقننا عادي الأشياء". كم هي عظيمة التوراة، وسامية مرتبتها ..وكم هو مستحيل الاعتداد فقط بقراءة حرفية نصها...فما تقصه ليس سوى تجلّ من لبوس أسرارها وعلاماتها الرامزة ؛ ذاك ما نشرحه مستنيرين بقول "بيرقي أبوت" : "لا تنظرن إلى الجرة، فالحري بك أن تفحص خبيئها".

يشرح بويفركان في عرض مفصل المشنا الأولى في "بيرقي أبوت" : "وتلقي موسى التوراة على طور سنين" ليبسط معراج موسى على السماوات، وليصف جند

(40) بيرقي أليعازار، الفصل الثالث، 10/.

السماء، ويشرح سر السكينة، ويصف تلقي التوراة مستحضرا أدوات التأويل القبالية المعروفة في عصره[41]. من أهم المشنايات أو الحكم التي عالجها بويفركان بأنة وعناية تلك التي تتصل بالبعد الأخلاقي في علاقته بالتدين، وبقواعد الزهد. نذكر منها ما يلي :

1- "إن عدمت دراسة التوراة انعدمت الأخلاق، وإن عدمنا العلم انعدمت خشية الله أبوت"[42]. يجعل بويفركان من هذه المشنا بوابة لدراسة البعد الروحي لتحصيل العلم، ولضرورة تبجيل وتعظيم المتعلم أطفلا كان يتدرج في الألفباء أو "تلميد حاخام" يجهد في تحصيل علمي الظاهر والباطن. فكلا المتعلمين متوجان بتاج السكينة، وبهما تمام التوحيد الرمزي فرأس خشية الرب العلم.

2- **"كن متواضع الروح فالأمل في الإنسان دودة نخرة"**[43] حكمة متداولة في النصوص التوراتية، وهي النقيض عادة للغرور المنهي عنه. فالمعنى الظاهر لهذا النص واضح، بيد أن محرر شرح بيرح شوشان يرتقى بنقاش هذه الحكمة إلى مستوى آخر بتفضيله الخوض في معنى **ana'** المفيد للفقر وأدبياته في المدونة الصوفية القبالية دون إهمال المكون التلمودي.

3- **"ما جعلته الحكمة تاجا على رأسها يجعل منه التواضع كعبا لنعله"**[44]. يتناول بويفركان هذه المشنا محيلا على الآي التوراتي. يقول : "وكان موسى رجلا حليما أكثر من جميع الناس.." سفر العدد، XII-2. ومن تزيا بسربال الغرور فهو كالمرء النمام الذي يفرق بين الأصحاب" سفر الأمثال، XVI-28.

المصادر المعلن عنها في ثنايا شرح "كتاب الآباء"

أثرى بويفركان مقدمته بالإفصاح عن بعض المصادر التي اعتمدها لصياغة كتابه. وهي مصادر متنوعة تمنحنا تصورا تقريبيا عن انتقال الأفكار والمذاهب في أوساط

---

(41) A. Karppe : "*Etude sur Les origines du Zohar*". Paris; 1901. p. 82.

(42) "بيرقي أبوت" : الفصل الثالث، 17.

(43) المصدر نفسه.

(44) "بيرقي أبوت" : الفصل الرابع، 4.

الطوائف اليهودية خلال هذا العصر. وتفصح عن خطأ الاعتقاد بعزلة الطوائف اليهودية بجنوب المغرب، والقول بغفلتها عما يجري في العالم. فالقراءة المتأنية والفاحصة للمصادر اليهودية التي صيغت في فضاءات وتخوم الصحراء، وهي كثيرة، كفيلة بتوضيح النسيج الاجتماعي الذي روجت في إطاره الأفكار والبضائع بالجنوب. يقول **بويفركان** :

"... لا تسعفني مرتبتي، ولا يمكنني قصر باعي أن أتجرأ وأضيف من عندي لما قال فقهاؤنا وعلماؤنا. فليس في الوسع سوى أن أقطف من أقوالهم ثمارا أينعت، وانتخب من كتاباتهم بلسما. فمصنفات القدماء أدق وأبعد غورا من مصنفات المُحدَثين. وهي محتاجة فقط إلى من يمنحها شذى ومذاقا يحبب الناس فيها ويرغبهم إليها، ببعث شهية الناشئ والمتعلم من خلال بسط معانيها الظاهرة، واستجلاء بواطنها ومقاصدها. ومجموع الشروح التي أبسط في هذا الكتاب مطابقة لآراء الحكماء الربانيين الذين يرأسون، باعتبارهم الأساتيذ من دون منازع، دروس الحكمة والتوراة. فهم من يشد أزري، ويمنحني العون في نهج سبيل القبّالا القويم ؛ وعلى رأسهم صاحب الحكمة والعقل الثاقب "راعِيا مِهيمْنا"، أو الراعي الأمين. ومنهم كذلك مصنِّف "**سفر هتقونيم**"، الحكيم الربّاني، ولي الأولياء، من يكشف الأسرار، ويحل العقد، الربّي "**شمعون بار يوحاي**"، هو وأصحابه حكماء "**سفر هَزُّهَر**"، المتوهجون كبهاء الجَلَد (دانيال XII، 3)[45]. وأقتبس أيضا من مؤلَّف "**شعري أوراه**"[46] أو أبواب النور، ومن سفر "**هَبهير**"، أو النور المبهر... كما أستنير من مؤلف "**هيخال هاقودش**" أو "هيكل أو قصر القداسة" لشيخي ليبارك ذكره. وتسترشد خطاي بمصنف خالي ليبارك ذكره : "**عِص حَييم**"، أو شجرة الحياة. أما ما يخص

---

(45) "راعيا مهيمنا"، و"سفر هتّقونيم"، المشار إليهما أعلاه، بالإضافة إلى "مدراش هَنِعْلام" هي الأجزاء الكبرى المؤلفة لـ "سفر هزُّهَر". وبويفركان ينسب "سفر هتقونيم"، إلى العلم "شمعون بار يوحاي من القرن الثاني ؛ ويروي عن "راعيا مهيمنا". وهو بذلك متابع للاعتقاد السائد بقدم هذا الكتاب الذي أثبتت دراسات جرشوم شوليم أن واضعه الحقيقي هو موسى الليوني (النصف الثاني من القرن الثالث عشر). مصنف يتضمن أصداء التوجهات الفكرية للعصر في الغرب الإسلامي وتخومه النصرانية.

(46) من النصوص المؤسسة للفكر الصوفي اليهودي الإشراقي، مؤلفه يوسف جيقاتيلاَ (النصف الثاني من القرن الثالث عشر). حققه يوسف بن شلومو عام 1981، القدس.

المعنى الظاهر الحرفي فإني أسوق آراء الشراح الأولياء "لينعموا بالسلام"، وفي مقدمتهم الرئيس صقر البيعة **الربي موسى بن ميمون** ذكراه مباركة. ثم ربينا **عوباديا البَرْتنوري** في شرحه لـ"**مشنايوت**"، وكذا **ربينا يحيئيل** ... فهؤلاء الثلاثة شهود يعزرون قولي، وهؤلاء الشيوخ تيجان وأكاليل غار على رأسي، عليهم معتمدي ؛ وهم سندي في تحبير هذا الكتاب الذي دعوته "**بيرَح شوشان** "، أي "**زهرة السوسن**"[47].

صنف **بويفركان** مصادره الكبرى في مجموعتين كبيرتين :

1- مجموعة تضم شيوخه ومرجعياته في **القبّال** ؛ وهم إلى جانب قريبه مصنِّف "**عِص حَييم**"، أو شجرة الحياة، وشيخه **موشيه بن ميمون الباز** الآنف الذكر، "**شمعون بار يوحاي**" الذي ينسب إليه "**سفر هَزُّهَر**". وهو الذي يروي عن "راعِيا مِهيمْنا". وسفر "**هَبهير**" أو **النور المبهر**[48]، **ثم** مؤلِّف "**شعري أوراه**" أو أبواب النور.

2- مجموعة تضم شيوخه ومرجعياته في التفسير على ظاهر الشرع، وعلى رأس هؤلاء **الربي موسى بن ميمون**[49]، ثم **عوباديا البَرْتنوري، والربي يحيئيل**[50]. وهي لائحة

---

(47) "زهرة السوسن"، الورقة 1، ألف وباء.

(48) مصنف مغرق في غموض عرفاني شديد ظهر في البروفانس، جنوب فرنسا، في مستهل القرن الثالث عشر. وقد نسبه واضعه إلى نحونيا بن هقانا.

- Gottefarstein Joseph : "Ha bahir, Le livre de la clarté", Edition Verdier 1983.

(49) أبو عمران موسى بن ميمون، "رَمْبام" (1135-1204م)، هاجر بمعية أسرته إلى فاس بعد بلوغ الموحدين العدوة الأندلسية. واستقر لاحقا بأرض الكنانة حيث عمل طبيبا في بلاط الدولة الأيوبية. وقد عده اليهود أكبر حبر ظهر في تاريخهم. وتعكس مصنفاته في التشريع الإسرائيلي والتأليف الفلسفي والطب استيعابه للفلسفة اليونانية والثقافة الإسلامية والثقافة اليهودية. صنَّف "دلالة الحائرين" ؛ كتاب في ثلاثة أجزاء. أس البنية العميقة فيه فرض العقل والمنطق على نصوص التوراة والتوفيق بين الدين والفلسفة. انظر موسى بن ميمون : "دلالة الحائرين" تحقيق د. حسين آتاي. وانظر أيضا الدكتور أحمد شحلان : "من الفكر الفلسفي اليهودي العربي، أبو عمران موسى بن ميمون وكتابه دلالة الحائرين". مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد الخامس والسادس، 1979. وكذا شمعون ليفي في :

"Maimonide et l'histoire du Judaïsme Marocain", dans "Maimonide", Colloque du 22 décembre 1986, Casablanca.

(50) لم نقف على ترجمة تعرف بهذين العلمين، وإن كان الأستاذ الزعفراني ينسب –بحذر شديد– إلى يحيئيل مؤلف "منحاه حدشاه" ؛ مصنف طبع في كراكوفي عام 1576.

حرص **بويفركان** من خلال ذكرها تأكيده على الأخذ بالمعنى الظاهر، وعدم إنكار شرعية الفقه الربّي. وفي ذلك موقف معتدل من قضايا الخلاف التي كانت، آنئذ، على أشدها بين الفقهاء الربّيين وأنصار التصوف الإشراقي[51].

إنها مصادر ينتمي جلها إلى الفكر اليهودي المغربي الأندلسي، وينتمي بعضها إلى مؤلفين يهود مغاربة وغير مغاربة متأثرين بالفكر القبالي وبتياراته المختلفة التي عَمَّقت في يهودية هذا العصر النزوع المسيحاني المستعجل للخلاص. **فسفر البهاء** المعروف بـ"**سفر هَزُّهَر**"، مصنف صيغ حوالي سنة 1275م في **قشتالة**. وتضمن تفسيرا عرفانيا لنصوص التوراة. وأضحى المرجعية الرئيسية في تصوف ما بعد الطرد من بلاد الأندلس. أما مؤلَّف "**شعري أوراه**" فهو أحد المصنفات المؤسسة للفكر القبالي في **قشتالة**. ألفه **يوسف بن جيقاتيلاّ (ولد عام 1248)**. وإلى الفضاء نفسه ينتمي سفر "**هَبهير**"، أو النور المبهر، مصنف قَبّالي أيضا. يُنسب للربي **نحونيا بن هاقاناه** (القرن الثاني). وقد غدا قيد التداول حوالي سنة 1245م حين أصبحت نصوصه موضوع نقد عميق من قبل "**مايير بن شمعون الناربوني**"[52]. ويعتقد **كريتز** أن المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب، ليس الربي **نحونيا بن هاقاناه** بطبيعة الحال، بل القبالي "**عَزْرييل**" (قشتالة، القرن الثاني عشر)، في حين ينسبه دارسون آخرون إلى شيخ هذا الأخير **إسحاق البصير**[53]. والكتاب عبارة عن حوار متخيَّل بين فقهاء متخيَّلين، مقتبسة أسماؤهم من "**التلمود**" و"**المدراش**". يتضمن شروحا مغرقة في الغرابة، تعكس اغتراف مؤلفه من الغنوص والعرفان. ويكشف تحليل نصوصه عن عمق معرفة محرره بالمؤلفات اليهودية عامة، وكذا اطلاعه على أهم تيارات التصوف في عصره. فهو لم يكتف بنقل أفكار وتوجهات معاصريه، بل سعى إلى تعميقها وإغنائها. وهو ما جعل **هنري سيرويا**، ومن قبله **جرشوم شوليم**[54] يؤكدان على حضور هذا المصنف الحيوي في جل الكتابات **القبّالية** خلال العصور اللاحقة، واعتباره حلقة أساسية في تشكل التصوف الإشراقي اليهودي، لم يتردد **بويفركان** في اعتمادها والإفادة منها في شرحه لـ "**بيرقي أبوت**".

---

(51) - Gershom Scholem : "*Les origines de La Kabbale*", pp. 416-437.

(52) - S. Karppe : "*Etude sur les origines du Zohar*", p. 258.

(53) - Henri Serouya : "*La Kabbale, Ses origines, Sa psychologie mystique, Sa métaphysique*", Grasset 1947. p. 169.

(54) -Gershom Scholem : "*Les origines de La Kabbale*", pp. 59-201.
- Henri Serouya : "*La Kabbale, Ses origines, Sa psychologie mystique, Sa métaphysique*", pp. 169-171.

ولسفر "**هَزُّهَر**"، أو كتاب البهاء، الذي يحيل عليه المصنف موقع رئيسي في الفكر اليهودي، زادت أهميته بعد الطرد من الأندلس عام 1492م ؛ إذ لعب دورا حيويا في الحياة الفكرية والدينية ليهود المجتمع المغربي، واحتل مكانة مقدسة في أوساط الطوائف جميعها. ولم تعدل مكانته المقدسة سوى مكانة **التوراة والتلمود**. فقد أدمجت الطقوس والشعائر نصوصا منه في عناصرها. وشهدت كل الفضاءات التي وجدت بها طوائف يهودية بالمغرب "زوايا" باسم "**شمعون بار يوحاي**" المؤلف المفترَض لـ "**هَزُّهَر**" ؛ درج المؤمنون فيها على استظهار وترتيل هذا السفر، والاحتفال بختمه في طقوس رمزية تمتح شرعيتها من مرويات مغربية تؤكد أن الكتاب ظل مستورا في مغارة بجبال تُدغا إلى أن قيض الله كشفه، حين أزفت نهاية الزمن والخلاص. **وبويفركان**، كغيره من "**مقوبّلي**" المغرب متشبع كما تشهد على ذلك مصادره ومضامين مصنفه بهذا السفر، وبشروحه العرفانية. وهو متشبع، في نفس الآن، بالآداب اليهودية الصوفية التي اشتد عودها على أرض الغرب الإسلامي وتخومه النصرانية في **جيرونة وقشتالة**. والمصادر المسوقة في النص أعلاه، وكذا في مجموع أبواب الكتاب شاهدة على تأثر المؤلف بالتصور المسيحاني الذي بشر به "**سفر هَزُّهَر**"، وأصله **إسحاق لوريا الأشكنازي في صفد بفلسطين**. إنه تصور عرفاني هيمن على الفكر اليهودي قرونا عدة، ومنحه **لوريا**، لاحقا، تأصيلا قوامه العقدي الإيمان الراسخ بحلول زمن الخلاص الحقيقي، وقرب ظهور **المسيح بن داود**. غاياته في التصور اليهودي لهذا العصر استعجال نهاية أزمنة الفوضى والتشظي، والاستعداد لزمن الخلاص، ونهاية المعاناة والنفي والتشرذم. زمن بحلوله "يعلو بنو إسرائيل الأمم. ويشيِّد فيه **المسيح بن داود** مملكة الله على الأرض"[55].

---

(55) - Scholem Gershom : "The Messianic idea in Judaism and other Essays on Jewish Spirituality", schoken, New York 1971.